سلامة القس
وأغنية الوداع

قال عنها المدائني: كانت سلاَّمة مغنية حاذقة، جميلة، ظريفة، شاعرة، ما رأيت خصالاً أربع اجتمعن في امرأة مثلها: حُسن وجهها، وحُسن غنائها، وحُسن عزفها، وحُسن شعرها. وسلامة واحدة من أشهر المغنيات اللاتي ذاع صيتهن عبر الزمان، ولدت في المدينة، وتعلمت الغناء والعزف من أساتذة عصرها، فبرعت فيهما، حتى أصبح يُضرب بها المثل، وكان صوتها عذباً شجياً يخلب الألباب، في يوم من الأيام سمعها عبد الرحمن بن أبي عماد الجمشي ــ قارئ القرن ــ وكان أشهر قراء مكة، والذي لُقّب بـ"القس" لكثرة عبادته وشدة ورعه، كان صوتها ينساب رخيماً، نافذاً للقلب، وهي تغني لحناً رقيقاً، فتأثر القس من غنائها الذي اخترقه دون إرادة منه، فلقد أمضى حياته عازفاً عن الغناء والطرب، لما يجد فيهما من التلهي عن ذكر الله، ولكن الأقدار شاءت أن يصك سمعه، دون أن يتعمد، هذا الصوت الذي شل حركته، فظل ساكناً يستمع حتى فرغت سلامة من أغنيتها بعد أن

أذابت قلبه وجداً، ولما رأى صاحب الدار تغيُّر هيئة القس وتأثره بغناء سلامة، أمر فحضرت مجلسهما، ورآها القس، فعرف أنه قد وقع في الحب، كانت تتراءى أمامه جميلة، رقيقة، حلوة الشمائل، بالغة الحسن، أما هي فقد بهرها زهده وتقواه، وكان ذا شهرة، فسمعت عنه قبل أن تلقاه، فلما رأته ملكها حضوره القوي، وفيض نقائه الذي يسطع في عينيه طهراً وعذوبة، أسرها بخلقه القويم وحسن شمائله، فمال كل منهما للآخر، والصَّبُ تفضحه عيونه: كما قال أحمد رامي، لذلك لم يعد بينهما احتمال، وذاع الخبر، تناقلته الألسنة من دار إلى دار، فأصبح حديث المدينة: "القس الزاهد العابد العارف بالله يعشق ويحب المغنية الحسناء"، وأخذ الخيال ينسج قصصاً مبتذلة يلصقها بأبطال القصة الأصلية، فادّعوا أن القس قد هوى في درج الخطيئة، وأنه قد شغله الغرام عن دين الله وتعاليمه، وغير ذلك من الافتراءات والأكاذيب، لكن الحقيقة أن الحب الطاهر الشريف ليس خطيئة، وأن عبادة الله لا تمنع الإنسان أن يمارس إنسانيته: بتبادل المشاعر الرقيقة التي تطهر القلوب وتسمو بالروح، هكذا كان القس يدافع عن قضيته، وعن حبه، كان لا يرى في حبيبته إلا روحاً نقية وقلباً طاهراً، وكان يجاهد نفسه ضد غرائزه، ولا يستبيح أن تقهره الشهوات، فظل حبه عفيفاً وظل هو على عهد النقاء.

وفي أحد الأيام، قالت له سلامة وقد غلبها الهيام: أنا والله أحبك. قال: وأنا والله أحبك. قالت: أريد أن أضع فمي على فمك. فقال: وأنا والله أحب ذلك. قالت: فما يمنعك؟ قال: إن الله عز وجل يقول "الأخلاء يومئذٍ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين" وأنا أكره أن تكون خلة ما بيني وبينك تؤول إلى عداوة، ثم قام وانصرف مسرعاً هارباً من ضعفه، أو هارباً من الشيطان، وانغمس في ذكر الله والصلاة والصوم، مستعيناً بهم على نفسه، ومستعيداً زهده ونسكه. لكن الأيام كانت تخبئ مفاجأة، حيث فرقت شمل الحبيبين، فقد وصلت شهرة سلامة إلى يزيد بن عبد الملك خليفة المسلمين، فقرر أن يشتريها، ويضمها إلى قصره كي يتمتع بفنها البديع، فقد كان يردد قائلاً "لا يقر عيني بما حصلت عليه بتوليتي الخلافة حتى أشتري سلامة وحبابة" وقد دفع يزيد بن عبد الملك عشرين ألف دينار ثمناً لسلامة، بخلاف الثياب والحُليّ والطيب والأصباغ التي جاءت بها الرسل محملة على الركائب هدية لها، وحانت ساعة الرحيل، غنت سلامة أغنية الوداع لحبها الميئوس منه، وللأماكن التي شهدت أحلى لحظات حياتها، وبلغت شدة انفعالها بالغناء: أنها لما فرغت راحت في غيبوبة بعض الوقت، ولما فاقت وجدت أن الناس قد التفوا حولها: يبكون وينتحبون تأثراً من غنائها، ولوعة من فراقها وحرمانهم من هذا الصوت الساحر!